النقد البلاغي

الدكتور احمد مطلوب

(عضو المجمع) كلية الآداب ـ جامعة بغداد

النقد عند القدماء هو تخليص جيد الكلام من رديئه ، او هو « علم جيد الكلام من رديئه » «١» . والبلاغة هي معرفة أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال ، ومعرفة ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ، ومعرفة وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة «٢» . اي انها علم يدرس ثلاثة جوانب من الكلام هي : علم المعاني ويدخل فيه تركيب الكلام وتحليله وما يترتب على ذلك من معنى يحدده النظم ، وعلم البيان ويشمل البحث في الصورة وتأثيرها في التعبير ، وعلم البديع ويضم الوان التحسين بعد ان تتسق العبارة ويتجلى المعنى بأروع تصوير .

وقد عرفت الأمم البلاغة والنقد وألفت فيها الكتب ووضعت الدراسات وكان لكل أمة اتجاه املاه ذوقها وطبيعة لغتها ، ووضع المعاصرون كتباً في هذا الموضوع وفرقوا بين البلاغة والنقد وقالوا ان « البلاغة ترشدنا بقواعدها الى الطرق والوسائل التي تجعل كلامنا نافعاً مؤثرا ، والنقد يضع لنا المقاييس العامة التي نقدر بها ما في الكلام من فائدة او قوة أو جمال » «٣» . أي أن البلاغة أقرب الى الناحية الفنية مادامت قواعدها تقود الى الابداع ، وانها اكثر ما

(١) ينظر نقد الشعر ص ١٣ ـ ١٤ .
(٢) ينظر الايضاح ص ١٢ ، ٢١٢ ، ٣٣٤ .
(٣) الاسلوب ص ٧ .

تعنى بالاسلوب ، اما النقد فيأتي دوره بعد أن تتم عملية الابداع ويعرض الأدب على مقاييسه ليحكم له او عليه ، وانه يتناول المعاني والأساليب ولذلك كانت دائرته أرحب ميداناً . وليس هذا دقيقاً لان البلاغة – وان كانت ترشد الأديب – تشمل المعاني والأساليب ، وهي وسيلة من وسائل النقد ، اي تشاركه في الحكم وترشد الناقد مثلما ترشد الأديب في ابداعه . وهذه هي حقيقة العلاقة بينهما ولم يكن النقد عند العرب الاوائل ينحو منحى النقد الحديث الذي ظهرت فيه مذاهب واضحة المعالم وقواعد راسخة الأصول يوغل فيها الناقد فيأخذ ما يعزّز رأيه ويقوي دليله ، وانما كان يتخذ من البلاغة وسيلة للوصول الى الحكم السليم . ويتضح ذلك فيما عرض له القدماء مما يدخل اليوم في النقد كمسألة اللفظ والمعنى ، والاتباع والابداع ، والموازنة والتحليل . وهذه القضايا – وان كانت تحتل جانباً من النقد المنهجي عند الآمدي والقاضي الجرجاني – اتخذت من قواعد البلاغة اصولاً افضت بها الى رحاب النقد وميادين الأحكام .

فالنقد العربي بهذا المعنى قواعدُ بلاغية ولا يمكن معرفة الأحكام النقدية إلاّ من خلال أصولها ، ومن هنا جاء الفصل بين النقد والبلاغة افتعالاً لا يقرّه واقع النقد العربي ولا خصائص اللغة العربية ، اي ان البلاغة هي علم الاسلوب الذي أخذ يشيع في السنوات الأخيرة ويأخذ طريقه الى الدراسات النقدية . وقد كان القدماء صادقين مع انفسهم ومخلصين للغتهم حينما اهتموا بالاسلوب واتخذوه مقياسا في نقدهم ، وليس قول الجاحظ : « والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير » «٤» ببعيد عن الواقع وهو ما عزّزه عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » و « اسرار

(٤) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ – ١٣٢ .

البلاغة » وبنى عليه نظرية النظم التي تعدّ أهم ماتوصل اليه النقد العربي القديم .

لقد اهتم القدماء بفنون البلاغة لانها تعرض للاسلوب ومضوا في دراستهم يتلمسون بناء العبارة وما فيها من صور ، ولذلك اقتصر كلامهم عل الجملة او الجملتين ، لان تحليل بنية الكلام لايتم إلا في ضوء ذلك .

ومن هنا لا يحقّ للمعاصرين أن يأخذوا على الأقدمين وقوفهم على العبارة وتحليلها والحديث عن بنائها وتركيبها وما فيها من صور ، لان تلك طبيعة تحليل الكلام ، ولا يفعل النقاد المعاصرون حينما يعرضون لمثل ذلك اكثر مما فعل الأقدمون . وهذا يعزّز موقف العرب من الدراسة النقدية ويظهر سماتها التي كادت تنحصر في تحليل العبارة والوقوف على ما فيها من صور ومحاسن بديعة . وقد بدأ هذا الاتجاه منذ عهد مبكر ولعل الكتب التي تعرضت لدراسة اسلوب القرآن الكريم حملت بذوره ، فمجاز القرآن لأبي عبيدة (— ٢٠٨ هـ) ومعاني القرآن للفراء (— ٢٠٧ هـ) وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (— ٢٧٦ هـ) تؤكد هذا الاتجاه وتسنده . وأخذ هذا الاتجاه طابعا علميا حينما وضع الخليفة والشاعر العباسي ابن المعتز (— ٢٩٦ هـ) « كتاب البديع » ليُعلم « أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سموا بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه » و« أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع » (٥) . وكان « كتاب البديع » ايذاناً بالدرس البلاغي النقدي المتمثل في كتاب « نقد الشعر » الذي وضعه قدامة بن جعفر (— ٣٣٧هـ) بعد أن لم يجد « أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا»(٦)، وأخذ من قواعد البلاغة اسسه وجعلها سبيلاً تفضي للوصول الى الأحكام .

(٥) البديع ص ١ ، ٣ .

(٦) نقد الشعر ص ١٣ .

وكان « نقد الشعر » منطلقا لتقنين أصول النقد والبلاغة لا « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكري (— ٣٩٥ هـ) لان كل ما كتب بعده كان يتخذ من البلاغة أساسا في نقده وان سُميت المؤلفات كتباً نقدية او حملت أسماءً نقدية .

وكان كتاب « نقد الشعر » و « كتاب الصناعتين » قمة النقد البلاغي أو النقد المعتمد على فنون البديع ، ونقف معهما كتب الاعجاز ولاسيما « اعجاز القرآن » لأبي بكر الباقلاني (— ٤٠٣ هـ) الذي تعرض لفنون البديع وتحدث عنها كمعاصريه . والبديع عنده باب من أبواب البراعة وجنس من أجناس البلاغة ، وان كان لا يرى في وجوهه ما يفسر الاعجاز ؛ لان « هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل اليها بالتدريب والتعوّد والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الانسان طريقه صحّ منه التعمل له وأمكنه نظمه » ولان « هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلّم والتدرّب والتصنّع له كقول الشعر ورصف الخطب وصناعة الرسالة والحذق في البلاغة وله طريق يسلك ووجه يقصد وسلم يرتقى فيه اليه ومثال قد يقع طالب عليه » (٧) . ولكن الباقلاني — على الرغم من ذلك — تحدث عن فنون البديع واتخذها مقياسا في نقده ، وتبعه كثير ممن جاء بعده ولعل ابن أبي الاصبع المصري (— ٦٥٤ هـ) كان من أبرزهم فقد خصّص أحد كتبه البلاغية والنقدية لبديع القرآن ، ووقف موقف الناقد البلاغي في في كتابه « تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » .

ولم يبتعد النقاد عن هذا الاتجاه ، إذ وضعوا أمامهم فنون البلاغة عند كلامهم على قضايا النقد ، ولعل أبرز ما تعرضوا له « عمود الشعر » وهو كما قال المرزوقي (— ٤٢١ هـ) : « انهم كانوا يحاولون شرفَ المعنى وصحته ، وجزالةَ اللفظ واستقامتَه ، والاصابةَ في الوصف — ومن اجتماع هذه

(٧) اعجاز القرآن ص ١٦٢ ، ١٦٨ .

الاسباب الثلاثة كَثُرت سوائر الامثال وشوارد الأبيات — والمقاربةَ في التشبيه ، والتحامَ أجزاء النظم والتئامَها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبةَ المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلةَ اللفظ للمعنى وشدةَ اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما . فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر ، ولكل باب منها معيار » (٨) . ومعظم هذه الأبواب فصول في كتب البلاغة ، ولذلك لم يبعد أبو القاسم الآمدي (— ٣٧٠ هـ) في « الموازنة » والقاضي الجرجاني (—٣٩٢ هـ) في « الوساطة » عن هذا الاتجاه فكانت فنون البلاغة أهم أدواتهما النقدية عند تعرضهما لعمود الشعر والموازنة والمقايسة والسرقات . وكان المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية والجناس والطباق والتقسيم وجمع الأوصاف والترصيع والاستهلال والتخلص والخاتمة والغلو والافراط ، تتردد في كتابيهما وتأخذ دورها في العرض والموازنة والمقايسة والتحليل .

وكان الى جانب هذين الكتابين كتب أخرى تتحدث عن النقد مثل « حلية المحاضرة في صناعة الشعر » لابي علي الحاتمي (—٣٨٨هـ) ، و « المنصف » لابن وكيع (— ٣٩٣ هـ) ، و « الممتع » لعبدالكريم النهشلي القيرواني(—٤٠٣هـ)، و « العمدة » لابن رشيق (—٤٥٦ هـ) ، و « البديع في نقد الشعر » لاسامة بن منقذ (— ٥٨٤ هـ) ، و « المثل السائر » لضياء الدين بن الاثير (— ٦٣٧ هـ) ، و « نضرة الاغريض في نصرة القريض » للمظفر العلوي (— ٦٥٦ هـ) و«حسن التوسل الى صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبي (— ٧٢٥ هـ) ، و « جوهر الكنز » لابن الاثير الحلبي (— ٧٣٧ هـ) . وهذه الكتب كلها تنزع منزعاً بلاغياً في تعرضها لقضايا النقد ، أي أن النقد العربي ظل مرتبطاً بالبلاغة ، وكان نقداً بلاغيا لولا بعض ما كان يندّ من وقفات تتعرض للصحة والخطأ ، والتناقض ، والابتكار والتقليد ، والدين والاخلاق ، والعلم والشعر ،

(٨) شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٩ .

والصدق والكذب ، والقوة والوضوح . فالمدقق في كتب النقد والبلاغة يرى الاتجاه البلاغي واضحا ، وان الباحث مهما صنّف النقد القديم في اتجاهات يجد أن النقد العربي كان بلاغيا ، ولعل ذلك يرجع الى أسباب منها :

١ ــ ان اللغة العربية ذات خصائص متميزة وتفنن عجيب في الاداء والتعبير ، وان نظم عباراتها يدل على معنى يقصد اليه وان ذلك المعنى يتغير حينما يتغير نظم العبارة أو تركيب الكلام .

٢ ــ ان القرآن الكريم حفل بكثير من فنون البلاغة ، وكانت تلك الفنون ذات أثر عظيم في كلام العرب ، وقد لوّنته بصور بديعة وجدت سبيلها الى نفوس العرب فاذا بهم يأخذون بها ، واذا بها تظهر في كلامهم وتأخذ سبيلها الى بحوثهم ودراساتهم .

٣ ــ ان طبيعة تفسير القرآن الكريم والوقوف على ألفاظه وعباراته أدّى الى أن يسود هذا المنهج في الدراسات اللغوية والنحوية والنقدية ، أي أن تكون العبارة أساس الحكم النقدي .

٤ ــ ان العبارة او الجملة الواحدة او البيت الواحد كان مقياساً للحكم على الكلام ، ولذلك ترددت اقوالهم في أغزل بيت أو أمدح بيت أو أهجى بيت.

٥ ــ ان اهتمام العرب بالدراسات النحوية والوقوف على العبارة او الجملة دفع النقاد الى الوقوف على بناء الجملة وتلمس ما فيها من تصوير .

٦ ــ إن التحليل لا يكون إلا في الجملة أو العبارة وهذا جعل النقاد يحصرون أنفسهم فيه حينما بحثوا في الصور الفنية وتحدثوا عن جمال العبارة وتلمسوا رقة الاسلوب .

٧ ــ ان الشعر مادة كلام العرب ، ولم تكن الى جانبه قصة او رواية تقود الى النظرة الكلية والحكم العام على العمل الأدبي .

وقد تكون هناك أسباب غير هذه جعلت البحث البلاغي ينحصر في الجملة

أو العبارة ودفعت النقد الى أن يتبع هذا النهج ويتخذ من فنون البلاغة مقياسا . ومهما قيل فان النقد العربي مرتبط بالبلاغة ارتباطاً وثيقاً لانها أهم اركانه ولانها أهم سمات اللغة العربية التي حفلت بكل فن بديع . وابرز النقاد البلاغيين عبدالقاهر الجرجاني (— ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) صاحب نظرية النظم ، وهو — على الرغم من ايمانه بان النظم « توخي معاني النحو » — ينحو منحى نقديا في كتابيه « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » ويستمد مقاييسه من فنون البلاغة ويتخذها سبيلاً للحكم على الكلام . وقد ربط من خلال نظرية النظم البلاغةَ بالنقد وجعلهما فناً واحداً هو علم البيان الذي « لا ترى علما هو أرسخُ أصلاً وأبسقُ فرعاً وأحلى جنى وأعذبُ وِرْداً واكرمُ سراجاً » (٩) منه . وأرجع كل حسن ومزية الى النظم وهو « أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت ، فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها » (١٠) . وهذا هو علم المعاني الذي ظل مرتبطاً بالوان البلاغة والنقد الأخرى ، وظلت هي مرتبطة به وتنهل منه . فالاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز الأخرى من « مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون ؛ لانه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتوخَ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلايتصور أن يكون ههنا فعل او اسم قد دخلته الاستعارة من غير أن يكون قد ألف مع غيره . أفلا ترى أنه إن قدّر في « اشتعل » من قوله تعالى : « واشتعل الرأسُ شيباً » أن لا يكون « الرأس » فاعلاً له ، ويكون « شيبا » منصوباً عنه على التمييز ، لم يتصور أن يكون مستعاراً . وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة ، فاعرف ذلك » (١١) . والسرقة الأدبية لا تكون إلا من خلال النظم

(٩) دلائل الاعجاز ص ٤ .
(١٠) دلائل الاعجاز ص ٦٤ .
(١١) دلائل الاعجاز ص ٣٠٠ .

ولذلك لم يحكم عبدالقاهر عليها من خلال المعاني والالفاظ وانما بترتيب الكلام واخراجه في صورة جديدة . فبيت الشعر عند تغيير كلماته أو وضعها وضعا آخر تسقط نسبته الى الشاعر ، وقد يكون البيتان في معنى واحد ولكن يختلف أحدهما عن الآخر في صورته بخواص ومزايا وصفات كالخاتم والخاتم ، والشنف والشنف ، والسوار والسوار ، وسائر أصناف الحلى التي يجمعها جنس واحد ثم يكون بينها الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل . وقد يكون المعنى شائعا معروفا ولكن الشاعر يخرجه إخراجاً بديعا ، فالناس تقول : « الطبع لا يتغير ، ولست تستطيع ان تخرج الانسان عما جُبل عليه ». وهذا معنى غُفْلٌ عاميٌّ معروف في كل جيل وأمة ، وحينما قال المتنبي :

يُراد مـــن القلب نسيانُكم وتأبى الطباعُ عـــلى الناقـــلِ

خرج الكلام في أحسن صورة وتحوّل جوهرة بعد أن كان خرزة ، وصار أعجب شيء بعد أن لم يكن شيئاً (١٢) . وربط عبدالقاهر البديع بالمعنى وهو مما يصدر عن النظم ويرجع اليه .

لقد كان النقد والبلاغة عند عبدالقاهر فنا واحداً هو النظم ، يرجع اليه الأديب عند الابداع ويستند اليه الناقد عند إطلاق الأحكام ، وكان البلاغيون الآخرون نقاداً بهذا المعنى ، وكانت البلاغة عندهم وسيلة من وسائل النقد . ولكي تتضح الصورة لابدّ من عرض أمثلة للنقد القديم ، فالقاضي الجرجاني وازن بين أبياتٍ لأبي تمام وأبياتٍ لبعض الأعراب واتخذ من فنون البلاغة مقياسا . وأبيات أبي تمام :

دعني وشربَ الهوى يا شاربَ الكاس
فانني للذي حَسَّيْتَـــه حـــاسي

(١٢) ينظر دلائل الاعجاز ص ٣٢٤ .

لا يُوحِشَنَّكَ ما استعجمتَ من سقمي
فانّ مُنزِله من أحسن الناسِ
من قَطع ألفاظِه توصيلُ مهلكتي
ووصْل ألحاظه تقطيعُ أنفاسي
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا
ما كان قَطْعُ رجائي في يَدَي ياسي

وقد قال القاضي : « فلم يَخْلُ بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة ، طابق وجانس ، واستعار فأحسن ، وهي معدودة في المختار من غزله . وحقّ لها ، فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ، وأصنافا من البديع . ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوّة ما تراه ، ولكنني ما أظنك تجد له من سَوْرَة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبي والعيسُ تهوي
بنا بين المنيفةِ فالضِّمارِ
تَمتّعْ من شميم عَرار نجدٍ
فما بعد العشية من عَرارِ
ألا يا حبذا نفحاتُ نجدٍ
وريا رَوْضِه غِبَّ القِطارِ
وعيشُك إذ يَحُلُّ القومُ نجداً
وأنت على زمانكَ غيرُ زارِ
شهورٌ يَنْقَضين وما شعرنا
بأنصافٍ لهنّ ولا سِرارِ
فأما ليلُهُنّ فخيرُ ليلٍ
وأقصرُ ما يكون من النهارِ

فهو كما تراه بعيد عن الصنعة ، فارع الالفاظ ، سهل المأخذ ، قريب التناول . وكانت العرب انما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتُسَلِّم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبدَهَ فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته . ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض » (١٣) . وهذا الحكم مستمد من فنون البلاغة ، وليس عمود الشعر إلا ضربا من ضروبها وسبيلا من سبلها . وقد فضّل القاضي أبياتَ الأعرابي لانها جاءت مطبوعة ليس فيها تجنيس أو مطابقة وليس فيها ما لجّ فيه الشعراء المولدون من فنون البديع ، وان صيغت صياغة أنيقة وصُوّر المعنى فيها أجمل تصوير .

ويعدّ ابو بكر الباقلاني من أبرز النقاد القدامى ومن ابرز البلاغيين الذين نظروا الى الكلام نظرة كلية واتخذوا من السورة القرآنية او القصيدة اساساً في العرض والتحليل . واتضح ذلك في تعرضه لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري التي مطلعها :

أهلاً بذلكمُ الخيالِ المقبلِ
فعل الذي أهواه أو لم يفعلِ

وفي اتخاذه فنون البلاغة مقياساً مهماً في حكمه على ابيات القصيدتين وتعقبه لما فيهما من تشبيهات واستعارات أو خلوهما من المحاسن .

قال في بيتي البحتري :

من غادةٍ مُنِعَتْ وتَمنُعِ نيلَها
فلوأنها بُذلَتْ لنا لم تَبْذُلِ

كالبدر غير مُخَيَلٍ ، والغصْنِ غير مُمَيَّل ، والدّعْصِ غيرَ مُهَيَلِ

« فالبيت الأول — على ما تكلف فيه من المطابقة وتجشُّم الصنعة — الفاظه

(١٣) الوساطة ص ٣٢ — ٣٤ . الابداع : المجيء بالبديع .

أوفر من معانيه ، وكلماته اكثر من فوائده ، وتعلم أن القصد وَضْعُ العبارات في مثله . ولو قال : هي ممنوعة مانعة ، كان ينوب عن تطويله ، وتكثيره الكلام وتهويله . ثم هو معنى متداول مكرر على كل لسان . وأما البيت الثاني فأنت تعلم التشبيه بالبدر والغصن والدعص امر منقول متداول ، ولا فضيلة في التشبيه بنحو ذلك . وانما يبقى تشبيهه ثلاثة اشياء بثلاثة اشياء في البيت ، وهذا ايضاً قريب لان المعنى مكرر . ويبقى بعد ذلك شيءٌ أخر وهو تعمله للترصيع في البيت كله إلا ان هـذه الاستثناءات فيهـا ضرب من التكلف ؛ لان التشبيه بالغصن كاف ، فاذا زاد فقال : كالغصن غير مُعَوَّج ، كان ذلك من باب التكلف خللاً وكان ذلك زيادة يُستغنى عنها ، وكذا قوله : « كالدعص غيرَ مُهَيَّل » لانه اذا انهال خرج عن ان يكون مطلق التشبيه مصروفاً اليه فلا يكون لتقييده معنى » «١٤» .

وكان عبد القاهر الجرجاني ينظر الى الكلام من خلال النظم ، والنظم عنده توخي معاني النحو ، وهو ما سمي بعد ذلك « علم المعاني » أحد فروع البلاغة الثلاثة . فعبد القاهر لم يخرج عما الفه النقاد الاقدمون في تحليل العبارة والنظر اليها من خلال النظم . ومن بديع تعليقه قوله في ابيات البحتري :

بلونـا ضرائبَ مـن قـد نـرى
فمـا إنْ رأينـا لفتـح ضـريبـا
هـو المـرءُ أبْدَتْ لـه الحادثـا
تُ عـزماً وشيكـاً ورأياً صليبا
فكالسيـف إنْ جئتـه صارخـاً
وكالبحـر إنْ جئتـه مستثيبـا

« فاذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازاً في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر ، فانك تعلم ضرورة أن ليس إلاّ أنه

(١٤) اعجاز القرآن ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

قدّم وأخر ، وعرّف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة . أفلا ترى أن أول شيء يروقك منها قوله : « هو المرء أبدت له الحادثات » ثم قوله : « تنقل في خلقي سؤدد » بتنكير السؤدد واضافة الخلقين اليه ، ثم قوله : « فكالسيف » وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ ؛ لان المعنى لا محالة فهو كالسيف . ثم تكريره الكاف في قوله : « وكالبحر » ثم أن قرن الى كل واحد من التشبيهين شرطاً جوابه فيه ، ثم أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالاً على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله « صارخا » هناك و « مستثيبا » ههنا . لا ترى حسنا تنسبه الى النظم ليس سببه ما عددتُ أو ما هو في حكم ما عددت فاعرف ذلك »(١٥)

وقال عن الابيات المشهورة :

ولما قضينا من مِنًى كلَّ حاجـة
ومسَّح بالأركان مـن هو ماسـحُ

وشُدّت على دهم المهـارى رحالنا
ولم ينظر الغادي الـذي هو رائـح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننـا
وسالت باعناقِ المطيّ الأباطح

« هل تجد لاستحسانِهم وحمدِهم وثنائِهم ومدحِهم منصرفاً إلاّ الى استعارةٍ وقعت موقعَها وأصابت غرضَها، أو حسنِ ترتيب تكامل معه البيانُ حتى وصل المعنى الى القلب مع وصول اللفظ الى السمع واستقرّ في الفهم مع وقوعِ العبارة في الأذن ، وإلاّ الى سلامةِ الكلمِ من الحشو غيرِ المفيد والفضلِ الذي هو كالزيادة في التحديد وشيءٍ داخلَ المعانيَ المقصودةَ مداخلةَ

(١٥) دلائل الاعجاز ص ٦٧ ـ ٦٨ .

الطفيلي الذي يُستثقل مكانه والاجنبيّ الذي يكره حضورُه ، وسلامتِه عن التقصير الذي يفتقر معه السامع الى تطلُّب زيادةٍ بقيت في نفس المتكلم فلم يدلّ عليها بلفظها الخاص بها واعتمد دليلَ حالٍ غيرِ مفصح أو نيابة مذكورٍ ليس لتلك النيابة بمستصلح » (١٦) .

ووازن ضياء الدين بن الاثير بين بيت بشار :

مَنْ راقبَ الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجته

وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ

وبيتِ سَلْم الخاسر :

من راقبَ الناسَ مات هماً وفاز باللَّذة الجسورُ

واتخذ من البلاغة مقياسا فقال : « فالحكم بين هذين البيتين وبين أمثالهما من المعاني المتفقة إنما يقع في اللفظ خاصة وذلك يوجد في شيئين :

أحدهما : يتعلق بنظم الكلام الذي هو سبك الالفاظ بعضِها مع بعض .

والآخر : يتعلق بالايجاز الذي هو الاختصار .

فاما النظم فانّ له أوصافا اربعة :

الاول : منها أن تكون الالفاظ واضحةً بيّنةً ليست بغريبةِ الاستعمال .

الثاني : أن تكون الالفاظُ حلوةً في الفم سهلةً على النطق غيرَ مستثقَلة ولا مُسْتكرهة .

الثالث : أن تكون كل لفظة من الالفاظ ملائمة لاختها التي تليها غيرَ نافرة عنها ولا مباينة لها .

الرابع : أن لا يكون في الالفاظ تقديم وتأخير يستغلق به المعنى فيجيء نظم الكلام مضطربا .

---

(١٦) أسرار البلاغة ص ٢٢ .

فهذه اوصاف اربعة تتعلق بالالفاظ ومتى عُرّيَ الكلام المنظوم والمنثور منها لم يكن فصيحا ، وان عُرّي عن شيء منها نقص منه جزء من الفصاحة . واذا نُظر الى هذين البيتين من جهة السبك وُجِدا سواءً فهما إذن متساويان من هذه الجهة . واما الايجاز فانه إذا نُظر اليهما من جهته وُجِدَ بيتُ سلم أوجزَ من بيت بشار لانه ثماني لفظات وذاك عشرة ، فهو إذن أفضل منه . ألا ترى أنهما تساويا من جهة السبك وفَضُل أحدُهما الآخرَ من جهة الايجاز ؟ وهذا الحكم جارٍ في كل ما يجري على هذا النهج من المعاني المتفقة » (١٧) . وهل التعرض للالفاظ ووضوحها وملاءمتها ، وللتقديم والتأخير ، والايجاز والاطناب إلاّ نقد بلاغي ؟ .

هذه الامثلة الاربعة لم تكن خاصة بلون من ألوان البديع ولم تَرِد عند بحث النقاد لها في فصول فنون البلاغة ومباحثها ، وانما جاءت في الموازنة بين النصوص ، فالقاضي الجرجاني وازن بين أبيات أبي تمام وأبيات بعض الأعراب ، والباقلاني نقد قصيدتين مشهورتين الاولى معلقة امرىء القيس والثانية لامية البحتري ، وعبدالقاهر تحدث عن النظم وهو يوازن بين ما حسن نظمه وفسد نظمه ، وابن الاثير وازن بين بيتي بشار وسلم الخاسر . وهذه المواقف بعيدة عن الكلام على فن بلاغي بعينه ، ومعنى ذلك أن الناقد القديم لم يبتعد عن سبيل البلاغة لانها مادة نقده وركنُه الركين . وظل هذا الاتجاه واضحا في الدراسات النقدية عند المتأخرين ولم ينفك أحد منه ، أي أن ما كان نقداً صرفاً ارتبط بالبلاغة وفنونها .

وبدأ هذا الاتجاهُ بالظهور في السنوات الأخيرة من هذا القرن ، وأخذ النقد يميل الى تحليل العبارة والوقوف على طرائق التعبير ومابين الكلم من ارتباط وقد استفاد من الدراسات اللغوية الحديثة ولاسيما البنيوية التي سادت وطبعت

(١٧) الاستدراك ص ٥٨ ــ ٥٩ .

البحوثَ الانسانية بطابعها . ولا يخرج النقد على تحليل العبارة أي أنه عودة الى ما عرفه العرب في نظرية النظم وما تحدث عنه الباحثون في مسألة اعجاز القرآن الكريم ، إلاّ أنه أشدّ جرأة واقتحاماً لعالم الفن والأدب واكثر اهتماما بالشكل والتقنين . وتأثر النقد العربي الحديث بهذا الاتجاه وشاعت البنيوية واتخذها النقاد شرعة ومنهاجاً ، ولكنها قد تنحسر — بل بدأت تنحسر — وسيبقى النقد بعيداً عن الافصاح . ولو أن النقاد رجعوا الى أصول العرب في التحليل لوجدوا زاداً عظيما ولأقاموا نقدهم على أساس لغوي سليم وذوق عربي رفيع . وليس كالبلاغة العربية ما يعين على هذا النقد لانها تحليل للعبارة وايضاح للصورة وتحسين للكلام . ولابدّ للنقد من أن يأخذ منها أصوله لانه تحليل ، وأحد جوانب التحليل الوقوف على الاسلوب الذي يتميز به أديب عن آخر قبل أن تحلل الافكار وترصد الاهداف وتصدر الأحكام . أما ماشاع في السنوات الأخيرة فليس نقداً مهما روّج له أنصاره ، لانه يعتمد على الارقام وما كان الأدب رقما في تأريخ حياته الطويل وانما هو التعبير الصادق عن المشاعر والأحاسيس وتصوير للمعنى بأسلوب تهش له النفس وتطرب . وقد يفقد أثره حينما يتعرض له النقاد بالشرح والتحليل فكيف إذا استحكمت في نقده الأرقام وجردته مما فيه من روح تغذي العقول وتهذب الأذواق .

إن النقد البلاغي يضم كلّ ما تعرضت له كتب النقد والبلاغة القديمة وكثيراً مما استجد في هذه الأيام . ولا بدّ للناقد من أن يكون عارفا تلك الأسسَ والأصول ليسير بخطى ثابتة . ولعل أهم ما ينبغي الوقوف عليه :

١ — الالفاظ : لان اللفظةَ المادةُ الأولى والاساسيةُ في بناء الجملة والعبارة والنص فاذا استثمر الأديب طاقتها وفجّرها كان مبدعا في أدبه ، واذا استغلها الناقد كان موفقا في حكمه . ولن يقلل من قيمة اللفظة ما ذهب اليه أصحاب نظرية النظم وعلى رأسهم عبدالقاهر لانه ليست كل لفظة تصلح للأدب الرفيع . وكان هذا الناقد نفسه يولي الالفاظ رعاية واهتماما ، وقد

قال بعد أن عرض نظريته : « واعلم أنّا لا نأبى أن تكون مذاقةُ الحروف وسلامتُها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة وان تكون مما يؤكد أمر الاعجاز ، وانما الذي ننكره ونَفيل رأي من يذهب اليه أن يجعله معجزاً بـه وحـده ويجعلـه الأصلَ والعمـدةَ فيخـرُجُ الى مـا ذكرنـا من الشناعات » (١٨) . فعبد القاهر لم ينكر فصاحة الالفاظ وجرسَها وانما لايفسر الاعجاز بها . وكان العرب قد درسوا سحرها وتأثيرها منذ عهد مبكر ، ولعل الجاحظ (— ٢٥٥ هـ) كان من أقدمهم ، وجاء ابن سنان الخفاجي (— ٤٦٦هـ) فأولى الألفاظ أهمية كبيرة ووضع لها شروطا حينما تكون مفردة وحينما تكون في الجملة ، وفتح السبيل لضياء الدين بن الاثير الذي أقام كتابيه «المثل السائر » و « الجامع الكبير » على فنين :

الاول : الصناعة اللفظية وهي في اللفظة المفردة وشروطها وفي الالفاظ المركبة وفي بعض فنون البديع وهي : السجعُ ، والتجنيسُ ، والترصيعُ ، ولزومُ مالايلزم ، والموازنةُ ، واختلافُ صيغ الالفاظ واتفاقُها ، والمعاظلةُ اللفظيةُ ، والمنافرةُ بين الالفاظ في السبك .

الثاني : الصناعة المعنوية وهي فنون البلاغة والنقد الاخرى كالاستعارة والتشبيه ، والتجريد ، والالتفات ، والتقديم والتأخير ، والايجاز والاطناب والكناية ، والمبادىء والافتتاحات ، والتخلص والاقتضاب ، والتناسب في المعاني ، والسرقات الشعرية .

وكان ابن الأثير دقيقاً في هذا التقسيم لان العبارة تركيب للالفاظ المفردة ولابدّ من معرفتها قبل الحديث عن العبارة وما فيها من تصوير وتأثير .

٢ — النظم : ويراد به تركيب العبارة وما يطرأ عليها من حذف وذكر ، وتقديم وتأخير ، وقصْر ، وايجاز واطناب وغير ذلك مما درسه القدماء في

(١٨) دلائل الاعجاز ص ٤٠١ .

« علم المعاني » أو ما سماه عبدالقاهر « النظم » . ودراسة هذه المسألة ضرورية لانها تتصل بتركيب العبارة ولاسيما التقديم والتأخير الذي يعطي الأديب حرية واسعة في التعبير واداء المعاني .

٣ — التصوير : ويُراد به كل ما أدخله القدماء في « علم البيان » كالتشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، وبعض ما أدخلوه في « علم البديع » مما له صلة وثيقة بالتصوير .

٤ — التحسين ، وهو مايليق بالكلام من المحسنات اللفظية والمعنوية .

وليست هذه الفصول بعيدة عن النص الأدبي وروحه ، وانما هي مادتُه وأصل تشكيله ، ولن يكون الأديبُ متميزاً إلاّ من خلال صياغته وقدرته على اختيار اللفظ المناسب والتركيب المعبر والتصوير المؤثر . ولن يكون الناقد ذا قدرة على التحليل والحكم وهو بعيد عن أصول فن القول وطرائق التعبير .

فالنقد البلاغي ليس بدعةً أو مرحلةً انتهت ، وانما هو جوهر الأدب مهما تنوعت فنونه واختلفت مذاهبه وتعددت أساليبه ، وسيبقى النقد قاصراً إن تجرد من البلاغة وتبقى أحكامه ذاتية إن ابتعد عن أصولها الممتدةِ في أعماق الزمن والنابعةِ من روح اللغة العربية وسحرِها العظيم .

المصادر :

١ــ الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية ــ ضياء الدين بن الأثير . تحقيق الدكتور حفني محمد شرف . القاهرة ١٩٥٨ م .

٢ــ أسرار البلاغة ــ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق هـ . ريتر . استانبول ١٩٥٤ م .

٣ــ الأسلوب ــ احمد الشايب . القاهرة ١٩٥٢ م .

٤ــ اعجاز القرآن ــ ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني . تحقيق السيد احمد صقر . دار المعارف ــ القاهر ة .

٥ــ الايضاح في علوم البلاغة ــ محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزويني . تحقيق لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الازهر . القاهرة .

٦ــ البديع ــ عبدالله بن المعتز . طبعة كراتشكوفسكي . لندن ١٩٣٥ م .

٧ــ الحيوان ــ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق عبدالسلام محمد هارون . القاهرة ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٨ م .

٨ــ دلائل الاعجاز ــ عبدالقاهر الجرجاني . تحقيق محمد رشيد رضا . الطبعة الخامسة ــ القاهرة ١٣٧٢ هـ .

٩ــ شرح ديوان الحماسة ــ أبو علي احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي . تحقيق احمد أمين وعبدالسلام محمد هارون . القاهرهرة ١٣٧١ هـ ــ ١٩٥١ م .

١٠ــ نقد الشعر ــ قدامة بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى . القاهرة ١٩٦٣ م .

١١ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه ــ القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي الطبعة الثالثة ــ القاهرة .